

2012

الأفريقية الإسبانية في صيغتها المجددة

محمد العربي المساري

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

المساري, محمد العربي (2012) "الأفريقية الإسبانية في صيغتها المجددة", *Dirassat*. Vol. 15 : No. 15 , Article 1.
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol15/iss15/1>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

الأفريقية الإسبانية في صيغتها المجددة

Cover Page Footnote

ألقى السيد محمد العربي المساري هذه المحاضرة برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير يوم 21 فبراير 2021-1

الأفريقية الإسبانية في صيغتها المجددة (1)

محمد العربي المساري

سأتعرض هنا لأطروحة مفادها أن الأفريقية ما زالت توجه الفكر السياسي في الجارة الإسبانية، وأنه وقع تحيينها، بإدخال حجج جديدة لتبريرها، وبذلك يمكن الحديث عن أفريقية مجددة.

وأقصد بلفظة الأفريقية، المقابل للفظة الإسبانية أفريكانيسمو. وهذه تحليل على مجموع المقولات والمواقف، التي تندرج في سياق مذهب سياسي، مركز على رؤية تبلورت بإسبانيا في القرن التاسع عشر، بهدف اكتساب موقع لدى اتخاذ قرار بشأن المغرب، في فترة كانت القوى الأوروبية العظمى متحفزة لاحتلال المملكة المغربية أو اقتسامها، ضمن مسلسل اكتساح أوروبا لبلدان الجنوب.

وقد استعملت كلمة إفريقيا منذ قرون سالفة للكناية على المغرب، سواء في النصوص البرتغالية أو الإسبانية. وبهذا المدلول وردت لفظة Africa إفريقيا في النصوص المتعلقة بالسياسيانيسمو، كما أن الملك فيليبي الثاني أثر عنه القول إنه يريد العرائش بديلا لإفريقيا بكاملها : Larache por Toda Africa. ومعلوم أن حرب تطوان تسمى في النصوص الإسبانية العسكرية والأدبية والصحافية بحرب إفريقيا.

وحيثما انعقد المؤتمر التأسيسي للجمعية الإسبانية للأفريقيانيين والكلونياليين في مسرح الحمراء بمدريد سنة 1884، كانت تلك الخطوة تكريسا لجهود فكرية وتحركات ميدانية بذلت بدون توان، لاستقصاء أحوال المغرب شمالا وجنوبا، بواسطة كل من خوسي مارية مورغا المعروف بالمورو بيتكابينو حوالي سنة 1863، وفي نفس الفترة برز مغامر آخر هو ميدينا غاطيل، وفي الجنوب بالشاطئ الصحراوي كان هناك إيميليو بونيللي الذي حط الرحال بالداخل سنة 1884.

(1) ألقى السيد محمد العربي المساري هذه المحاضرة برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير يوم 21 فبراير 2011.

وهذه التحركات كانت بدورها مواصلة لاستقصاءات همت التراب المغربي توالى منذ احتلال مليلية وسبتة في القرن الخامس عشر، وعموما في غمرة التحركات الرامية إلى تنفيذ وصية الملكة إيسابيل الكاثوليكية بشأن تعقب المورو في عقر داره لنشر كلمة المسيح في ربوع إفريقيا.

لن أتعرض بالتفصيل إلى هذه الحركة فهي موضوع شاسع ومتشعب، وقد خصص لها الأستاذ يوسف أكميز في كتابه الأخير لا أقل من عشرين صفحة أوضح فيها نشأة وتطور وأهداف حركة الأفريقانية التي مهدت لاحتلال المغرب. (من ص 102 إلى ص 121 (De Algeciras a Tetuan).

والجدير بالذكر أن إسبانيا كانت تراودها أحلام بشأن المغرب، رغم أنها كانت تعاني الأمرين في مستعمراتها بأميركا اللاتينية والفيليبين طيلة التاسع عشر. بل وكانت تعاني كثيرا من جراء صعوبات في عقر دارها، من حيث التلكؤ في إصلاح أحوالها الداخلية. وكانت تتطلع بأمل إلى ألا تقعد مقعدا في حظيرة الدول الأوروبية المتنافسة على أن تكون لها الكلمة في مصير أوروبا.

وفيما كانت الدول الأوروبية الكبرى تتسابق على اكتساب ممتلكات في آسيا وإفريقيا مزودة بقدرات عسكرية ذات بال، حرصت إسبانيا على أن تذكر بأنها بدورها ذات مطالب ترابية. وقد أملت عليها الواقعية أن تعلن مطالب متواضعة تقتصر على المغرب، وبالأحرى على جزء من ذلك المغرب، المعرض للاقتسام فيما بين دول قوية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وإلى حد ما إيطاليا.

و تحمست إسبانيا لفرض نفسها في الموضوع بعيد حرب تطوان 1859/ 1860، رغم أن تلك الحرب بالذات أوضحت للساسنة الإسبان أن أحلام العظمة باهظة الثمن، وأنها تتطلب إمكانات كبيرة لم تكن لإسبانيا منها حظ كبير.

وقد أضفى كل ذلك على المشروع الأفريقاني الإسباني طابعا رومانطيقيا. و امتزج في الخطاب الذي أفرزته تلك التطلعات شيء من أحلام العظمة، مع الخيبات التي كانت تنشأ عن سعيها للولوغ في واقع يصطدم بحقائق قاسية. ومن جراء ذلك برزت في فترات عديدة من تاريخ إسبانيا المعاصر، ميول للانسحاب من المغرب لدى عدد غير قليل من القادة السياسيين والعسكريين.

لكن طيلة عقود من القرن التاسع عشر، قبل وبعد حرب تطوان، تركزت نظرة الإسبانين على المغرب، كهدف توسعي يمكن إسبانيا من إثبات حضورها ضمن الكبار في أوروبا، ساعة الجلوس في طاولة اقتسام العالم. وقد استمر هذا التركيز فيما بعد طيلة القرن العشرين.

ونتيجة للتخبط بين الأحلام والخيالات وقعت لإسبانيا نكسات متكررة لأن مشروعها المركز على المغرب، مني بتقليص بحكم أن الأطراف الأوربية الأخرى لم تسمح لها إلا بأجزاء محدودة من التراب المغربي. وفي بعض الأحيان كانت تلك الحصة تكبر، ثم سرعان ما كانت تصغر. وأخيرا في سنة 1912 أصبحت لإسبانيا حصة في الشمال وأخرى في الجنوب، قنعت بها حكومات مدريد، لأن الظروف برهنت على أنه لم يكن في الإمكان أكبر مما كان. وها نحن بهذه الإشارات نرسم شيئا فشيئا الملامح التي تكونت منها ظاهرة الأفريقية.

وفيما بعد كانت أوضاع إسبانيا وأوربا - وخصوصا مزاج الشريك الرئيسي، فرنسا - تفرز حالة من الأخذ والرد، تنتهي عادة بتلقي صفعات لا تطاق. وهكذا يمكن القول إن السياسة الإسبانية بخصوص المغرب، كانت تتحرك في مثلث له ثلاثة أطراف هي إسبانيا والمغرب وفرنسا. وهذه تعاملت مع جارتها الجنوبية غالبا، باعتبارها مكتريا من الباطن. ونتيجة الخيبات السابقة واللاحقة لعقد الحماية، نشأت عقد مريرة ما زالت بعض آثارها ماثلة.

ولفهم جذور المذهب الأفريقي سنكتفي بالإشارة إلى أهم المنعطقات في السياسة الإسبانية تجاه المغرب في وقت حرج من تبلور تلك السياسة في أواخر القرن التاسع عشر. وسأتوقف عند ما كتبه السياسي غابرييل ماورة، وهو مؤرخ وبرلماني عن الحزب الليبرالي الذي خلف كتابا بعنوان المسألة المغربية نشره في 1905. وقد قال في مقدمته، مبررا الإقدام على تأليف الكتاب، إن المسألة المغربية قضية عالمية لها أهمية كبيرة بالنسبة لإسبانيا وتقتضي المصلحة الوطنية لإسبانيا معالجتها.

وكانت أبرز ذكرى مرتبطة بالمغرب، ظلت ماثلة في المخيلة الإسبانية في ذلك الوقت، هي حرب تطوان التي نظر إليها ماورة بوصفها مغامرة كيوخوطية عقيمة. وذكر ماورة بوصية الملكة إيسابيل ذات النفس الديني. وقال إن التحرك الإسباني تجاه المغرب قادت إليه اعتبارات دنيوية أكثر من خدمة المسيح. وأكد مرارا أن المسألة المغربية تمثل بوضوح بالنسبة لإسبانيا مسألة مرتبطة بالدفاع الوطني.

ورغم هذه التأكيدات الصارمة في محتواها، فإن المؤلف لم يخرج عن الخطاب الودي الذي غلف به الإسبان دائما كلامهم عن المغرب، حيث قال: إن المغرب ليس من بين الأقطار التي خلفتها الحضارة وراءها، ولكن مصلحة سكانه و مصلحة العالم أجمع تكمن في القيام بواجب إخراج هذا البلد من التأخر الذي وقع فيه. كما أنه ليس مجرد نقطة استراتيجية كمثلاها في الخريطة العالمية، بحيث يمكن لأي دولة أوربية أن تحتله، بل إن

ذلك يقع على عاتق إسبانيا. وبالتالي فإنه حينما يتم التوصل إلى اتفاق حول معبر جبل طارق، وفقا للتوازنات الأوروبية فلا بد من أن يؤخذ جدا في الاعتبار *ha de tenerse muy en cuenta* أن المغرب ليس مأهولا بسلالة همجية، غير قادرة على أن تبدي مقاومة لأي عدوان مسلح، بل يسكنه أناس كانوا بالأمس أشداء، وهم اليوم إذا كانوا في الحضيض، فهم ليسوا منحطين، ويعرفون كيف يدفعون ثمننا غاليا لاستقلالهم.

وبناء على هذا فإن الإسبانين قد قالوا دائما في كل العهود يستمر ماورة قائلا - إن الساحل المغربي في المتوسط لا يمكن أن تملكه أي دولة أوروبية غير إسبانيا. وإلا فإن وحدتنا الترابية ستكون على الدوام مهددة. (ص 30) هذه هي الفكرة المركزية التي تطرح في الكتاب بألف صيغة.

وانسجاما مع فكرته التي يتم التعبير عنها بعبارات ملؤها الاحترام للجار الجنوبي، قال ماورة : إننا لا ننسى السلوك السخي لملك المغرب إزاء إسبانيا أثناء الحرب مع إنكلترا ولعله يقصد سماح م. سليمان بتموين المدن الساحلية الإسبانية من المغرب أثناء حرب بين إسبانيا وبريطانيا - وقال ماورة إن ذلك يقتضي منا العرفان والمعاملة بالمثل ويقول : فمن الواجب علينا أن نتعامل بصداقة مع ملك المغرب، وإذا لم نتمكن من ذلك، (انتبهوا إلى البديل الذي يقترحه) "فيجب أن نسارع إلى أن نمتلك ذلك الساحل، حتى نتمكن من تملك طنجة ومن تقويتها".

ويزيد فكرته توضيحا فيقول متبنيا ما سبق أن قاله السياسي اللبرالي كويلو، في المؤتمر التأسيسي للأفريقانيين والكولونيين بمدير سنة 1884، "ماذا عساه يكون مصير إسبانيا إذا ما قامت دولة أخرى قوية باحتلال السواحل والأقاليم القريبة منا. ويجب ألا نسمح بان يرفع أماننا غير العلم المغربي. وهذا أمر يتعلق بالشرف الوطني لإسبانيا. وإني أعلن عاليا يضيف كويلو - إنه في حالة احتلال دولة أخرى غريبة، لنقطة في الساحل المغربي سيكون بالنسبة إلينا تطيخا كبيرا، كما لو كان الأمر يتعلق بجزء من ترابنا الوطني".

وقد نظر الإسبان من اليمين أو اليسار إلى مسألة احتمال احتلال المغرب من طرف الغير، كما لو كان ذلك الاحتلال بمثابة إحكام محاصرتهم ببرانس أخرى (كناية عن فرنسا) وجبل طارق آخر (كناية عن بريطانيا).

وغني عن البيان أن كل هذا ما هو إلا تغليف نظري لمسعي توسعي يرمي إلى احتلال المغرب أو جزء منه. وقد عبر عن ذلك كانوفاس ديل كاستيو رئيس الحكومة والمؤرخ

المعروف بقوله : إن إسبانيا تنتهي في جبال الأطلس. وقد ورد ذلك في كتاب عن تاريخ المغرب بعنوان *Apuntes para la Historia de Marruecos*.

وكان كانوفاس قد طرح مسألة احتلال المغرب كمسألة بديهية، إلا أنه على إثر ممارسته الحكم تراجع بعض الشيء حيث قال في البرلمان كما ذكر ماورة (ص41): "كيف لكم أن تتحدثوا عن التدخل في المغرب، وأنتم ليس لكم جيش أكبر اعتبارا من ذلك الذي خاض الحرب الأخيرة". وكان هذا الاستدراك من جانب كانوفاس بتاريخ 31 يناير 1988. وهو نداء صريح إلى الحذر من الولوغ في المغامرة المغربية. وهذا التحذير هو أيضا مقولة لم تختف قط من الأدبيات السياسية الإسبانية.

وهكذا فإن احتلال إسبانيا للمغرب هو مسألة وجدانية تقريبا، عبر عنها خواكين كوسطا بكلام شاعري، وشبهها آخرون بأن الأمر يتعلق بتناوب العبور بين ضفتي المضيق، حيث كان الشمال محتلا لمدة قرون من لدن الجنوب، ولا جديد في أن يهب الشمال بدوره لاحتلال الجنوب.

وكما ترون فإننا بصدد موضوع يختلط فيه التاريخ بالاستراتيجية، والشعر بالرؤى السياسية، والرسالة الدينية بالاعتبارات الدنيوية. وهذا المزيج هو ما أفرز خطابا سياسيا ملتبسا راج في عهد الحماية مفاده أن إسبانيا موجودة في المغرب لدواع أخوية ، فقط لأن الغير موجود فيه. وهذا الخطاب العاطفي القديم العهد، هو الذي بشرت به البعثة التي ترأسها الوزير مارتين أرتاخو وزير خارجية فرانكو في أوائل الخمسينيات إلى خمس دول في الشرق الأوسط لاستمالتها إلى جانب إسبانيا.

ولترجيح هذه المقولة العاطفية كان الخطاب السائد مؤسسا على مقولة أخرى وهي أن إسبانيا في المغرب تمارس في المنطقة التابعة لها سياسة أخوية تجاه المغاربة. بل إن القاموس الرسمي لإدارة الحماية في الشمال والجنوب الصحراوي لم يكن يتوانى عن ترديد عبارة الأخوة الإسبانية المغربية.

ومعلوم أن هناك بالفعل في التاريخ ما يشي بأن العلاقات الثقافية والديموغرافيا بين إسبانيا والمغرب هي مثال لعلاقات حميمة، لكن المغاربة الواقعيين تحت الاحتلال كانوا يجدون أمامهم نظاما استعماريا لا يمت إلى الأخوة بصلة.

نعم إن ربع السكان في المغرب تقريبا ينحدر من أصول مشتركة، و ما لا يقل عن 30% من إسبانيي اليوم يحملون في دمائهم خصائص وراثية ترجع إلى أصول شمال إفريقية ويهودية، تبعا لدراسة نشرت نتائجها منذ عامين. وقد أوردت نتائجها في بحث

لي بعنوان الأندلسيون في المغرب هم مغاربة عادوا إلى موطنهم الأصلي. بالتالي ليس بدعة، الحديث عن علائق تكاد تكون عائلية، مزاجا وثقافة فضلا عن المصالح الحيوية المرتبطة. ولكن الذهاب إلى حد التلويح بوجود علائق أخوية في ظل نظام الحماية، الذي كان يندرج في سياق علائق بين حاكم ومحكوم، كان يقتضي بعض التدقيق، وهو ما قام به باحث إسباني في كتاب يدخل في باب الأنثروبولوجيا وعلم السياسة عنوانه

Hermamndad Hispâno La marroqui
Politica y religion bajo el Protectorado en Marruecos.
Josep LLuis Mateo Dieste. Ediciones Bellaterra 2003

وهذا الكتاب يتضمن تشريحا متأنيا للسياسة المتبعة في ظل الحماية الإسبانية بالمغرب، والسياسة المتبعة في الحقل الديني من طرف الإدارة الإسبانية، والتيارات الفكرية التي كانت رائجة فيما بين المغاربة خاصة في الشمال.

ولا يفوت بالمناسبة أن نشير إلى أنه لغايات، يجب البحث في منشئها، تقتصر الأبحاث المتعلقة بالمغرب في شتى المجالات، على المنطقة الشمالية دون التطرق إلى ما يتعلق بالمنطقة الحماية في الجنوب وباقي المناطق الصحراوية. ويمكن القول إن هذا راجع إلى السياسة الصارمة المتعلقة بالأرشيف الموضوع رهن إشارة الباحثين، حيث يوجد نوع من التحكم في توجيه تصنيف الوثائق، وصولا إلى عزل محكم للوثائق المتعلقة بالجنوب الصحراوي عن بقية الرصيد الوثائقي لتكريس الفصل بين المجالين تبعا لسياسة مبيتة. وقد أخبرتنا الأستاذة مريم روصا دي ماداريغا، بأن بعض الوثائق المتعلقة بالصحراء، بدأ الإفراج عنها الآن، وعلى أي حال فإن تأجيل الإفراج عن تلك الوثائق كان ناتجا عن سابق تدبير.

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أن خطاب الإخاء ليس وليد عهد الحماية، فقد ورد في كتاب ماورة المتقدم الذكر نص صريح على الإخاء الإسباني المغربي حيث قال المؤلف في كتابه المومأ إليه (ص 38 و 39) من جهة إن إسبانيا مطالبة بالالتزام الاحترام التام للمغرب. ومن جهة أخرى فهي بالنسبة للمغرب شقيقة له، وبهذا الاعتبار فإنها تطمح إلى تحقيق الاستيلاء conquista الترابي على المغرب. وكان مثل هذا الخطاب يتردد وكأنه لا يستدعي أي احتياط في التعبير.

وفي مرحلة تالية من الحضور الإسباني بالمغرب، نجد أن هناك استمرارا في دعم ركائز المذهب الأفريقي، على نحو يثبت مركزية المسألة المغربية في الفكر الاستراتيجي الإسباني. ففي كتاب مطالب إسبانيا Las reivindicaciones de Espana. fernando Castiella y Jose Maria de Areilza المطبوع

في سنة 1939 تحدث الكاتبان وكيلاهما أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية، عن الانشغالات الاستراتيجية الإسبانية فخصصا نصف الكتاب للمغرب والنصف الآخر لكل من فرنسا وبريطانيا. ويستفاد من كتابهما أن جزءا مهما من الحنق التاريخي الإسباني يصيب الدولتين الأوربيتين وأن المغرب هو بمثابة الشاشة التي تتجلى فيها المطامح الوطنية لإسبانيا، وعلى تلك الشاشة تنعكس تطورات إسبانيا وخيبتها.

وقد كانت الأطروحة التي قدمها الباحثان الشابان في العلاقات الدولية تأسيسا لعقيدة رافقت حكومات فرانكو، منذ استتباب الأمور للانقلابيين حتى نوفمبر 1975. وهي عقيدة كرسها الجنرالات الذي ربخوا نياشينهم في المغرب، والذين امتزجت حياتهم المهنية بالمغرب، حتى أنه حينما زار الديكتاتور بريمو دي ريفيرا مواقع الريف، خاطبوه محذرين من خطة الانسحاب، قائلين : إن هذه أراض إسبانية ربحناها بالدماء التي سالت هنا.

وقد استمرت عقد دافنة تحرك سياسة إسبانيا تجاه المغرب طيلة عهد الحماية. واتضح أن تلك العقد كانت تتغذى من رافدين. أحدهما هو الشعور بأن وجود إسبانيا في المغرب هو حق تاريخي لها، والثاني هو التحفظ من فرنسا التي كانت لها اليد الطولى في المسألة المغربية، وكانت تتعامل مع إسبانيا بنظرة فوقية. واذكروا جيدا هذين الاعتبارين لأننا سنعود إليهما فيما بعد.

إن فرنسا، كما قدمنا تعاملت مع شريكها في الحماية من موقع التفوق. فمعلوم أنه بفضل فرنسا أمكن حسم حرب الريف الثالثة التي قادها بن عبد الكريم الخطابي، وبتحفيز من باريس تم لمدريد بسط نفوذها في 1934 على الأجزاء الداخلية من الصحراء المغربية الجنوبية الغربية. وأما بعد الحرب العظمى الثانية فقد أضيفت للحسابات الفرنسية الإسبانية، عقدة جديدة هي الموقف المعادي الذي تقمصته فرنسا ضد نظام فرانكو منذ 1936.

وكانت إسبانيا تقوم بردود أفعال بين الفينة والأخرى ضد المضايقات الفرنسية، وظلت منطوية على شعور بالتبرم من جاريتها الشمالية. وقد سعت مدريد لتعويض الخسائر التي كانت تمنى بها من جراء الحصار العالمي لنظام فرانكو، بواسطة خلق محاور بديلة. ونضجت الظروف في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، وسمحت برسم سياسة إسبانية في المغرب مدفوعة بالرغبة في الانتقام من فرنسا تصيدا لأخطاء جمهورية الغال في المغرب، ولكن دائما في نطاق رد فعل لا يطفئ العطش.

وقد وصف ذلك فيرناندو موران في كتابه سياسة خارجية لإسبانيا (ص 198)، وتحدث عن اضطراب إسبانيا إلى تقبل فكرة استقلال المغرب التي لم تكن هي صانعتها. فذكر بأنه فيما بين 1951 و1956، وخاصة في السنوات الثلاث الأخيرة، كانت إسبانيا قد سلكت ذلك السبيل أي تفهم موقف الوطنيين المغاربة، إلا أنه في ساعة الحسم لم يكن هناك لوبي مدني من المعمرين في المنطقة الشمالية مثلاً، بل كان الجيش هو الذي كان عليه أن يعالج الأوضاع الجديدة الناشئة عن استقلال المغرب.

ولاحظ موران أن جزءاً من الضباط فهم الموضوع كله على أنه انتقام من فرنسا وتشف فيها. ولعل موران يعني الموقف الذي اتخذته إسبانيا في فترة بالينيوز إزاء أفراد فرنسا بالقرار في مسألة العرش لدى نفي محمد الخامس، وهو مسلسل أدى إلى تسريع وتيرة الأحداث وفوجئت إسبانيا باستقلال المغرب.

وبسبب قلة عدد المدنيين في عين المكان - يقول موران - فإن حظوظ التعاون الاقتصادي والإداري والثقافي كانت ضئيلة على عكس ما كان في المنطقة الجنوبية. ولاحظ من جهة أخرى (ص 199) أن الوطنية المغربية التي تكونت عبر المواجهة مع فرنسا بالالتفاف حول محمد الخامس لم يكن لها تعامل مع إسبانيا. ولهذا فإن الطاقم الفرنكوي المسير للأمور لم يفهم أن المغرب أصبح أمة مستقلة تماماً، وأن البلد قد استعاد ممارسة سيادته.

وهذه الملاحظات الأخيرة لا بد من استحضارها لدى التفرس في التطورات المتعددة التجليات للعلاقات بين إسبانيا والمغرب المستقل. سواء في الملف الترابي أو في حقول الاقتصاد والثقافة. وقد نشأ ما لا مزيد عليه من عوامل سوء التفاهم بعد الاستقلال، التي خلقت حالة سهولة العطب للعلاقات الثنائية. ولم تعرف تلك العلاقات فترات هدنة طويلة تجعل الخواطر مستقرة. ويمكن القول إن تلك العلاقات ظلت تتكيف بالعقد التاريخية المكيئة التي لا تغادر الخاطر.

وقد عالج الكاتب خوان غويتيفولو هذه الحالة فكتب يقول، (إيل باييس 15 فبراير 2011) إن هناك تحالفاً مقدساً بين اليمين الأقصى واليسار الأقصى فيما يتعلق بتقاسم الميراث السلبي الذي له وجهان متلازمان لكل من الموروفوبيا والموروفيليا. وقال إن ذلك التمازج مستمر في الزمن. ففي تجمع للحزب الشيوعي الإسباني سنة 1977 تمت تحية وفد فلسطيني بلافتة كتب عليها "البوليزاريو سينتصر". ولا شك أن الكاتب الكاتالوني / المراكشي يعني أن تلك الحالة تدل على أن اليسار لا يتحرر من تلازم عقدتي الحب والكره. وقد أورد في نفس المقال أن هناك 400 جمعية لمناصرة البوليزاريو وتساءل بعد ذلك : فكم هو عدد الجمعيات التي تدافع عن المهاجرين؟

ماذا يريد غويتيسولو أن يقول لنا بهذا المثال⁵. إنه ربما يعني أن الرأي العام الإسباني لم يشف بعد من عقدة التعالي على المورو. وأنا أستدل على ذلك بالقول إن الرأي العام الإسباني المفطور على كراهية المورو هو خاضع لثقافة سائدة تجعل المغربي - تبعا لاستطلاع قام به مركز الدراسات الاجتماعية - CIS هو العنصر الإثني الذي يكن له الإسبان أكبر قدر من الرفض لا يتفوق عليه إلا الفجري. وفي استطلاع نشرت نتائجه في ديسمبر الماضي لمعهد إيلكانو للعلاقات الدولية، ورد أن المغرب يوجد في آخر قائمة الدول الأجنبية من حيث درجة القبول بمعدل يقل عن 4,5 من 10. وحينما سئل الإسبان في منتصف التسعينيات عما إذا كان لابد من شن حرب من أجل استعادة جبل طارق، كان الجواب بلا. ولكن فيما يتعلق بسببته ومليية أجابوا بأنهم يؤيدون الدخول في حرب مع المغرب للحفاظ على المدينتين المحتلتين. وبخصوص الصحراء جاء في استطلاع معهد إيلكانو منذ شهرين أن 39% يريدون قيام دولة انفصالية في الجنوب المغربي. وليس هذا حبا في الصحراويين، بل كراهية في المغرب وكان استطلاع أجري في التسعينيات قد دل على أن الإسبان يعتبرون أن التهديد الخارجي الذي تتعرض له بلادهم مصدره المعتاد هو الجنوب أي المغرب. ومعنى كل هذا أن صورة المغرب والمغاربة عند الإسبان هي في منتهى السلبية، على عكس نظرة المغاربة نحو الإسبان، التي هي متطورة ومتوازنة وواقعية.

وهذا يدل على أن الثقافة السائدة في المجتمع الإسباني تختزن حمولة ثقيلة من العقد التاريخية. فلم يهضم الإسبان - كما سجل فيرناندو موران - أن المغرب أصبح دولة مستقلة ذات سيادة. ولم يقبل الصيادون، إلا بصعوبة، أن المياه المغربية هي خاضعة للقوانين المغربية. ولم يقبل الفلاحون الإسبان قط جنوح الاتحاد الأوروبي إلى إبرام اتفاقيات تنص على تصدير المغرب لمنتجات فلاحية إلى الأسواق الأوروبية. وبخصوص الصحراء ما زالت هناك فكرة واسعة الانتشار مفادها أن إسبانيا ما زالت لها مسؤولية إدارية في أقاليمنا الجنوبية. وهذا الوهم مستقر في الأذهان، كأنه واقع قانوني، ويبدو أن هذه المقولة سكنت الخط التحريري لجريدة إيل باييس التي تقول عن نفسها إنها ناطقة باسم وسط اليسار. وهي مقولة لا يفتري اليسار المتطرف عن ترديدها باقتناع جازم، مانحا بذلك التزكية للدعاءات الشوفينية التي تستهدف المغرب.

وينتج عن كل هذا أن وهم الحقوق التاريخية ما زال قائما. إن الكثيرين في جارتنا الشمالية ما يزالون ينظرون إلى المغرب كبلد لا يليق له إلا يكون تحت الوصاية. ويمكننا أن نلاحظ ثانيا أن المثلث العتيق إسبانيا المغرب فرنسا ما زال قائما. ففي كتاب جاران متباعدان Vecinos alehados للصحافي إيغانثيو سيمبريرو، هناك فصل خاص بفرنسا

عنوانه شيراك العلوي يصور فيه الرئيس الفرنسي وكأنه لا شغل له، آناء الليل وأطراف النهار، سوى خدمة مصالح المغرب ضدا على إسبانيا. وقد سبق لي أن نبهت إلى أن ذلك الفصل هو أحسن هدية لفرنسا، إذ تقدمها في أعين المغاربة كدولة صديقة غيرة ووفية. والحق أن ميتيران أيضا كان "علويا" وكذلك هو ساركوزي، وكل رئيس فرنسي قادم سيدرك أهمية المغرب، كبلد جوهري في المنطقة. وبديهي أن الأمر يتعلق بوضوح الرؤية وبخدمة مصالح متبادلة.

وفي وسعنا القول إذن إن الأفريقية الإسبانية ما زالت جارية المفعول وإنه تجددت من حيث المعطيات والتوجهات. فهناك صيغة مجددة للأفريقية الإسبانية يمكن أن نحدد ملامحها في أن الهدف المحوري للسياسة الإسبانية بعد الاندماج في الاتحاد الأوروبي - ما زال بكيفية جوهريّة هو المغرب، كما كان عليه الحال منذ قرنين. غير أنه بما أن الوضع الدولي العصري لا يسمح بتداول نفس الخطاب والحجج العتيقة، فإن سدة المذهب الأفريقي قاموا بتحيينه. وبعد ما كانت الحجة القديمة هي نقل المغرب من الهمجية إلى التمدن، فإن الأفريقية المجددة تعتمد التلويح بلا هوادة بحقوق الإنسان، لحشر المغرب في زاوية الدفاع عن النفس. ويدخل هذا التكتيك في الرغبة المستمرة في حرمان المغرب من حقه في التفاوض على قدم المساواة مع إسبانيا.

وعلى سبيل المثال فإنه بالنسبة لأقصى اليسار لا يمكن الحوار بشأن سبتة ومليلية مع المغرب ما لم يصبح هذا البلد ديموقراطيا. فقد تعرض الحزب الشيوعي الإسباني إلى الطرد من سبتة ومليلية انتخابيا. ولمحاولة استرجاع جزء من الناخبين أخذ يتملص مما كان يرد بكيفية مضطربة في وثائقه القديمة بشأن إعادة المدينتين والصخور إلى مالكا الشرعي. وأصبح يتناسى مواقفه القديمة ويقول حينما يضطر إلى تناول الموضوع، إن المدينتين يجب ألا تسلما إلا إلى مغرب ديموقراطي حقيقي. والصيغة المطروحة هنا مستحيلة، تكاد تشبه اشتراطات بني إسرائيل للبقرة التي طلبوا من سيدنا موسى إنزالها. كما لا يخفى أن اليسار الموحد في إسبانيا يشدد الضغط على المغرب بشأن الصحراء مثلا بدعوى انعدام الديموقراطية في المغرب. والغرض هو استنزاف المغرب ليسهل الإجهاز عليه. وهكذا كان الدأب بخصوص بوحمارة في بداية القرن الماضي، حيث كان الأوروبيون يدعمون الروغي، ويقرضون المخزن لكي يستطيع أن يواجهه، وكان الغرض هو أن يبقى المغرب منشغلا على الدوام. ويوم اعتقل الفتان اشتد ضغط دول الخويزرات على السلطان لكي لا ينفذ فيه حكم الإعدام، واستمر الضغط حتى صبيحة يومه الأخير.

إن الأفريقية الجديدة تتشكل على أيدي فاعلين متنوعين. وهم رغم تنوعهم يلتقون في شيء واحد هو تشبعهم بكراهية المغرب. وتتم تغذية هذه الكراهية بكيفية حثيثة، وعبر تمرينات متوالية. حتى تحولت هذه الكراهية إلى عقيدة.

ومما يبين أن تلك التقاليد الموروثة عن الماضي ما زالت حية، أشير فيما يلي إلى ما كتبه مؤخرا أحد كتاب الأعمدة في إيل باييس هو خوان إيغناثيو طوري بلانكا، وهو أستاذ للعلاقات الدولية، ومحاضر في جامعة جورج تاون بواشنطن. فقد نشر نصا يذكر تماما بما قدمناه من أفكار لغبريل ماورة كان قد عبر عنها في 1905 حتى ليبدو كأن الزمن لم يتحرك.

كان ماورة قد ألح على إن إصلاح الأحوال في المغرب هو شأن إسباني، وأنه إذا ما قامت بذلك أمة أوروبية أخرى فإن ذلك سيكون افتئاتا على دور إسبانيا. وما قاله طوري بلانكا في مقال بجريدة إيل باييس عدد يوم 11 فبراير 2011 هو الآتي : "إن فرنسا لم تتوقع ما حدث في تونس. والولايات المتحدة لم تتصور ما كان ينتظر مصر. فهل سيحدث لإسبانيا نفس الشيء بالنسبة للمغرب؟ ثم نتأسف على ذلك بعد فوات الأوان".

إن هذا الكاتب يعتقد جازما أن المغرب مسؤولية إسبانية. ولم يبق له إلا أن يدعو إلى إرسال بارجة إلى المغرب لإجباره على أن يتخذ التدابير اللازمة الكفيلة بأن تجنب إسبانيا مغية الندم، بعد فوات الأوان. وهو نص يستدعي ملاحظة أساسية وهي أن بعض الإسبانين لم تغادرهم فكرة عتيقة توهمهم أنهم مخولون بالسهر على الشأن المغربي. فهذا الكاتب يوزع الأدوار بسهولة. يعتبر أن ساركوزي مسؤول عن تونس، وأوباما عن مصر، وأن السيد طوري بلانكا مسؤول عما يحدث في المغرب. يتعلق الأمر بنفس الهاجس القديم عند ماورة، الذي كان يعتبر أن المغرب شأن إسباني.

إنه يهدد بوضوح قائلا : يجب ألا نقع فيما بعد في الندم على أننا تجاهلنا العلامات الدالة على ما قد يحدث. والعلامات هي المؤشرات الاجتماعية والاقتصادية المقلقة على الحالة السيئة في المغرب. ويورد السيد طوري بلانكا معطيات معروفة تنشرها بانتظام المندوبية السامية للتخطيط بالمغرب، وهي كلها تصنف المغرب كما يرى السيد دي لا طوري، في عداد الدول المعرضة لانفجارات تؤدي إلى قلب النظام، مثل التي تمت في تونس ومصر. وبما أن ذلك الانفجار قد تأخر وقوعه فإن جريدة إيل باييس تبذل مجهودا حثيثا من أجل أن تتحقق النبوءة التي سطرها السيد طوري بلانكا.

وعاد في عدد يوم الجمعة الماضي (18 فبراير 2011) ليردد نفس الأفكار وليموم وزارة الخارجية الإسبانية مباشرة بسبب افتقارها لاستراتيجية جديدة بهذا الاسم. وقال في معرض العلاقة مع إفريقيا الاستوائية إن سياسات التنمية التي تكلف الخارجية الإسبانية

استثمارات هائلة غير مرتبطة بإنعاش الديمقراطية وحقوق الإنسان. والأحزاب السياسية منشغلة بشئانها الداخلي هي غير قادرة على أن تكون عاملاً يساعد على التغيير فيما وراء الحدود.

ولأجل الانخراط في شيء من هذا القبيل، أخذ تنظيم نقابي إسباني هو سيجيبي مغرب، ينشر نداءات بالإسبانية لتثوير الساحة السياسية في المغرب، وتمت الدعوة باسم "الأرضية المساندة لكفاح الشعب المغربي" لعقد تجمع يوم الأحد في بويرطا ديل صول بمديرية وآخر في برشلونة يوم 20 فبراير 2011 للتضامن مع الشعب المغربي إلى أن يتمكن من إسقاط النظام وتعميم الفوضى.

والأعداد الصادرة من الجريدة المذكورة، مثل أغلب الصحف الإسبانية، تواكب الأمور عن قرب. وكلها تشتمل من أن الأمد قد طال بالمغرب دون أن تحدث فيه مظاهرات مثل التي وقعت في تونس ومصر والجزائر واليمن. وتكاد الجريدة الأولى في إسبانيا تكتب يومياً: لماذا لم تحدث بعد مظاهرات في المغرب؟ والحال أنها دعت الأمير مولاي هشام ليدلو بدلوه. ثم نشرت تصريحات للسيدة نادية يس. وهلت لنداء 20 فبراير. ولا يخلو عدد من إي باييس من إيراد ما يبشر بأن الانفجار في المغرب قادم. ولم يفت جرائد إسبانية أن عبرت عن استيائها من أن لومند وليبراسيون قد فاتهما أن تذكر أن المغرب مرشح للانفجار.

ولنا أن نلاحظ على سبيل الختام إن إسبانيا الديمقراطية قد تحررت من كثير من العقد، وأنها قد انخرطت في الحداثة بعنفوان كبير، ولكن عقدها مع المغرب ما زالت راسخة. وللمتتبع لرسائل القراء في الجرائد وطبعتها الإلكترونية يلاحظ كيف أن النظرة الشعبية الإسبانية إلى المغرب والمغاربة تزداد ولوفاً في الكراهية، مما ينبئ بأنها نابعة من فكر متجذر. وتتردد في هذه النصوص أفكار وتصورات يسود أصحابها اقتناع لا يتسرب إليه أي قدر من الشك في أن المغرب بلد خاضع لنظام ديكتاتوري دموي. والصحافة فيه وكل وسائل الإعلام تأتمر بتعليمات وزير الداخلية. هكذا يضللون الرأي العام الإسباني.

ولقائل أن يقول إن الأمر يتعلق بعقد روابط عائلية ملغومة، أو بمرض نفسي عضال يعاني منه أحد الطرفين. إن هذا الوضع ليس فقط ثمرة لثقافة سائدة موروثة في المجتمع الإسباني، بل هو نتيجة مساع ذات طبيعة ميكيفيلية، وراءها مآرب مادية، تطمح إليها لوبيات الصيد البحري والمنتجات الفلاحية، وكذلك أجهزة مخابراتية من بينها أجهزة أجنبية لها مواقع في الساحة الإسبانية. والغرض دائماً هو تهيين الظروف لممارسة الضغط في سياق مزايدات محورها مصالح عمياء.

أكادير 22 فبراير 2011

الصحراء مجال تصعيد. أميناتو بمثابة لوثر كينغ
في جنوب إفريقيا ودار الوفد الإسباني الوحيد إلى جانب البوليزاريو
إيل باييس 28/1 الرباط تتخذ تدابير لتلافي اتساع اللاسياء
1/29 الديكتاتور ساطرابا فرمل الأسعار
1/30 ... ومحمد 6 يذهب في إجازة
1/31 بدأت المظاهرات الأولى
2/1 إيفي تخبر بان 40 أقدموا على إحراق انفسهم
مقال لبرنابي مخيم العيون كان البداية

Gabriel Maura Gamazo (Madrid, 1879 -Madrid, 1963),. Era hijo de Antonio Maura y Montaner, político y presidente del gobierno español en varias ocasiones con Alfonso XIII. Miembro del Partido Liberal-Conservador, fue Diputado a Cortes por Calatayud, representante de España en la Conferencia de Paz de La Haya de 1907, en la Conferencia Naval de Londres de 1908 y senador vitalicio en 1919. Durante la Dictadura de Primo de Rivera, a pesar de haber pertenecido a la Asamblea Nacional, ejerció la oposición cuando advirtió que la Asamblea no iba a convertirse en Cortes. Fue Ministro de Trabajo en el último Gabinete de Alfonso XIII, destacando su labor parlamentaria en lo referido a los asuntos de Marruecos y a la política internacional. Gabriel Maura huyó de la Zona frentepopulista al inicio de la Guerra Civil, (su valiosísimo archivo histórico fue saqueado y destruido por las milicias del Frente Popular). Regresó a España en 1953.

تولت إنجاز ذلك البحث الميداني جامعتا ليسستر Leicester من بريطانيا وجامعة بومبيو فابرا Pompeu Fabra الكاتالونية بإسبانيا. وقارنت الدراسة بين الخصائص الوراثية لسكان إسبانيا الحاليين في 18 موقعا بشبه الجزيرة الإيبيرية وأرخبيل الباليار، مع عينات لأشخاص من شمال إفريقيا وآخرين يهود سيفرديين. ونشرت النتائج في مجلة علمية أميركية تدعى *American Journal of Human Genetics* وهي تكشف أن الإسبان تناقلوا عبر خمسة قرون جينات من الكروموسوم Y تثبت أن هذه المنطقة شهدت تنوعا ملموسا في تركيبها السكانية. و أشرف على الدراسة باحث بريطاني هو Mark Jobling.

José Ignacio Torreblanca es Profesor Titular en el Departamento de Ciencia Política y de la Administración de la la Universidad Nacional de Educación a Distancia y Doctor Miembro del Instituto Juan March de Estudios e Investigaciones. Ha sido becario del Programa Fulbright Unión Europea-Estados Unidos, Profesor en la George Washington University en Washington D.C. así como investigador en el Instituto Universitario Europeo de Florencia.